أحاديث إصلاح القلوب

(٤١)

محركات القلوب

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ « وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ ». قَالَ حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ قَالَ « فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ». قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- « فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ». قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ. متفق عليه

وعَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَ : أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ : لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ ، إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو ، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ. رواه الترمذي والنسائي

وابن ماجة.

جمع هذان الحديثان ثلاثَ خصال عظيمة من خصال القلوب هي خير عدةٍ ومدخرٍ للقاء الله؛ الحبَ والرجاء والخوف ؛ حبَ الله تبارك وتعالى ، ورجاءه ، والخوف منه سبحانه ، ولا بد منها في الطاعات كلها والعبادات جميعها ، قال الله جل وعلا في شأن الحب: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال جل وعلا في شأن الرجاء: ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦]، وقال جل وعلا في شأن الخوف: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩]، وجمع جل وعلا هذه الثلاثةَ في قوله سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ .

ومقام الحب من العبادة مقام الروح من الجسد ، وهو الذي يهيِّج النفس ويحركها إلى القيام بالعبادة وطاعة المحبوب سبحانه والبعد عن مناهيه ، فالحب أساسٌ للعبادة بل هو روح لها لا قيام للعبادة إلا عليه . والرجاء قائدٌ للنفس ، لا سير لها في الطريق ولا استقامة لها عليه إلا به ، والخوف سائق للنفس وحاجز لها عن الحرام والآثام.

عن وهب بن منبه رحمه الله قال: «النفس كنفوس الدواب ، والإيمان

قائد ، والعمل سائق ، والنفس حرون، فإن فتر قائدها حرنت على سائقها ، وإن فتر سائقها ضلت عن الطريق» رواه ابن أبي الدنيا في أدب النفوس.

شبهت النفس بالدابة الحرون لكثرة تقلبها وعدم تحكم الإنسان بها، إلا إذا أعانه الله عليها بالعلم والعمل، قال ابن تيمية رحمه الله: "فإن العلم قائد والعمل سائق ، والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به".

فالرجاء قائدٌ لها إلى كل فضيلة ، يحدو إلى الطاعات ، ويأخذ بالعبد مأخذ الجد في العبادات ، والخوف سائقٌ وزاجر للعبد للمضي في الطاعة والبعد عن الحرام والإثم ، والرجاء إنما يكون نافعاً إذا كان قائدا للطاعات ، والخوف إنما يكون نافعاً إذا كان حاجزا عن المحرمات والآثام ولا يُغلَّب رجاءٌ على خوف ولا خوفٌ على رجاء ؛ بل يؤتى بهما جميعا فإنهما بمثابة الجناحين للطائر ، فمن غلَّب الرجاء على الخوف أمِن من مكر الله ، ومن غلّب الخوف على الرجاء قنِط من رحمة الله، وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكبائر قال: ((

الشرك بالله والإياس من روح الله والأمن من مكر الله)).

فالأمن من مكر الله يتطرق إلى النفس عندما يغلِّب العبد الرجاء ، والقنوط من رحمة الله يتطرق إليها عندما يغلِّب العبد الخوف ، والواجب على العبد أن يأتي بالرجاء والخوف معا بتوازن .

فما أحوج العبد إلى العناية بهذه الأركان الثلاثة للتعبد ؛ محبة لله ، ورجائه، والخوف منه سبحانه ، لتستقيم له طاعة لله تبارك وتعالى ، وكل تفريطٍ يقع في الناس غلوا أو تقصيرا راجعٌ إلى الإخلال بأحد هذه الأصول الثلاثة.

وتعد هذه الثلاثة محركات نافعةً عظيم النفع للقلوب، إذا وجدت في القلب حركته وسار سيرًا حثيثا إلى الله طلبا لرضاه وبُعدا عن مساخطه سبحانه، وقلت آفاته أو ذهبت.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته . فنقول اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة والخوف والرجاء . وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون } والخوف المقصود منه

الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره . فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب ؟ قلنا يحركها شيئان – أحدهما كثرة الذكر للمحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى { يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا } { وسبحوه بكرة وأصيلا } الآية . والثاني : مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى { فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون } وقال تعالى { وما بكم من نعمة فمن الله } . وقال تعالى { وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة } وقال تعالى { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها } فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء " .

وقال رحمه الله: "وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف

والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب قال تعالى {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} الآية وقال {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله} ورحمته اسم جامع لكل خير وعذابه اسم لكل شر ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ودار العذاب الخالص هي النار وأما الدنيا فدار استدارج".

وهذه الثلاثة فرائض افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده لابد أن تكون في قلوبهم ، وقد سمَّاها أهل العلم "أركان التعبد القلبية" ؛ لأنها أسس يقوم عليها الدين ينبغي استصحابها في كل طاعة يتقرب بها إلى الله سبحانه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "وقد علم أن العبادة إِنَّمَا تبنى عَلَى ثلاثة أصوال: الخوف والرجاء والمحبة، وكل منها فرض لازم، والجمع بين الثلاثة حتم واجب، فلهذا كان السَّلف يذمون من تعبد بواحد منها وأهمل الآخرين؛ فإن بدع الخوارج ومن أشبههم إِنَّمَا حدثت من التشديد في الخوف والإعراض عن المحبة والرجاء، وبدع المرجئة نشأت من التعلق بالرجاء وحده والإعراض عن الخوف، وبدع كثير من أهل الإباحة والحلول ممن ينسب إِلَى التعبد، نشأت من إفراض المحبة والأعراض عن الخوف

والرجاء".

وقد اجتمعت هذه الأركان الثلاثة في فاتحة الكتاب ، قال الله جل وعلا : {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } ؛ أما المحبة ففي قوله جل وعلا : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ لأن الحمد هو الثناء على الله جل وعلا مع حبه ، والثناء إذا كان عن غير حبٍ يسمى مدحًا ولا يسمى حمداً ، والله جل وعلا يُحمد لنعَمه التي لا تعد ولا تحصى ، ويُحمد جل وعلا على أسماءه الحسنى وصفاته العظيمة وجلاله وجماله وكبريائه سبحانه وتعالى، وأما الرجاء ففي قوله : { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ؛ فإن المسلم إذا قرأ { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } تحرك في قلبه الرجاء، وإذا قرأ { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } تحرك في قلبه الخوف ، قال الله تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } ، ثم قال بعد ذلك { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } : أي: أعبدك يا رب مخلصا لك العبادة بمحبتك ورجائك وخوفك.

وقد جاءت هذه الأركان الثلاثة مبيَّنة مفصَّلة موضَّحة في كتاب الله تبارك وتعالى .

ففي القرآن آيات فيها ذِكر المحبة ، والترغيبُ فيها ، وبيان آثارها وثمارها وعوائدها الحميدة ، ومكانتها من الدين ، وفضلِ من قامت في

قلوبهم { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة:٥٤] ، وبُيِّنت علاماتها ودلائلها وشواهدها ، وبُيِّنت أيضاً الأمور الجالبة لها والتي تنمِّي المحبة وتقوِّيها في قلب المسلم.

وفيه آيات ذكر فيها الرجاء وبيان مقامه العظيم ، وذكر الأمور التي تحرك الرجاء في القلب من النعيم والثواب والرحمة والمنّ والعطاء ، وعموم آيات الوعد والثواب وهي كثيرة في كتاب الله تحرك في قلب المسلم الرجاء . وكذلك أسماء الله الدالة على المغفرة والرحمة والإنعام والإكرام والفضل ، والتوبة ونحوها ؛ تحرك في القلب الرجاء .

وفيه آيات كثيرة فيها بيان الخوف والدعوة إلى تحقيقه ، وأن يكون قلب المسلم خائفاً من الله { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٧٥] ، فجعل ذلك شرطاً في الإيمان وأساساً في الدين ، وعمومُ آيات الوعيد في ذِكر العقوبة والنار والبطش والانتقام وغير ذلك كلها تحرك في قلب الإنسان الخوف من الله والخوف من عذابه سبحانه.

لقد خوفنا الله من سخطه وعقابه والنار فوجب علينا أن نخاف، ورغبنا في الجنة وما فيها من كريم النزل وطيب النعيم فوجب علينا أن نقبل ونرغب بقلوب عامرة بحب الكريم المنعم سبحانه.

ويشبه أهل العلم هذه الأصول وحاجة العبد إليها في سيره إلى الله

بالطائر ؛ فالمحبة رأسه ، والرجاء والخوف بمثابة الجناحين .

قال ابن القيم رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله عز و جل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف".

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لَا يَرْجُو عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذنبه» رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم.

وهذه الكلمة ـ كما قال ابن تيمية رحمه الله ـ من جواهر الكلام ومن أحسنه وأبلغه وأتمه، فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله، والرجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشر، والعبد إنما يصيبه الشر بسبب ذنوبه، ولا يجتمع هذان الوصفان إلا لعبد موفق لنيل ما يرجو من الخير وللأمنة مما يحذر من الشر.

جعلنا الله بمنه من المحبين الصادقين الراجين رحمته الخائفين من عذابه، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.